الغيرة

قصة بقلم الدكتور ميشال هليل

جلست الى هذه الطاولة . كانت عليها اوراقها ، وقلمها . اني اكتب ، اكتب لنفسي ، للاخرين .

رأيتني في المرآة ، أشعث ، العينين في العينين ، شاحبا ،شاحبا جدا والحق يقال . كنت محقا .

أو ليست ممثلة ، بطلة خيالية ، من هؤلاء اللامباليات اللواتي نخالهن سعيدات عندما نسمعهن يضحكن . احبها ، وللاسف ، حب حي لحي .

امضيت حياتي أعجب بنفسي بأذنين غريبتين ، بأذنيها . كنت افسر كل كلمة من كلماتي . كنت اتبرأ عجلا من نوايا لم تخطر لي قط. بسمتها وراحتها ، كانتا تدوخاني . كنت أبالغ في وعودي . كنتبحاجة الى لهب متعاظم التأجج . كلا ، لم تكن سعادتي ترضيني .

كـــلا .

فمذ قالت لي : « أحبك » ، ادركت انها خدعت . وانا لن ازيل انخداعها ابـدا . وهوسي الدائم لم يكن يعكر صفوها . هكذا جميعهن طبعن ، وأقلهن شغفا بالاحلام ينتظرن صوتا فاترا ونظرات فاترة. هي لا تظن ان كلماتي المنمقة ليست صادقة دائما ، لا تنبع من القلبدائما، واني غالبا ما أترصد وجهها وأنا اناجيها . أتألم لو سألتها من كـانت عشقت سواي ، واتألم لاستطاعتها ان تبحث عن اخر ، ان تزينـــه ، وأن تقارنه . أتألم لانها لا تحبني الا حب النساء والرجال المنقلب ، هذا الحب الذي ينفير كما النور . تستطيع ان تتركني . وغالبا مـا عشت هجرها . لا . لن ترتكب اي خطأ . لقد انحلت عقدة ، ولسـت ادري كيف ...

مثلا : أشغالي تضطرني في آحايين الى التغيب . دعاها اصدقاء فتيان ، مرحون ، الى العشاء ، وحدثوها عني بلطف ، فوافقت علـى كل شيء ، لا بل أطرت مدائحهم ، كما لو أنها نسيت ان في مـدح الحبيب شيئا من القحة ،كما لو انهاليست حبيبتي .وفيالصباح،افاقت على حلم جميل لم تعد تتذكره . وكعادتها ، أخذت حماما ، حمـــاما لذيذا . يا لهذا الشعور بالراحة والصحة الذي لا يمحي ! وتساءلت عن الصمت الذي يحتويها . فظنت الى غيابي . ودهشت فياول الامر لعدم تفكيرها فيّ . كلا . ليس بي حلمت . ولكنها ، شكرت لاصدقائي وفاءهم لي . وهي بخصوص توافقهم الرأي اكثر ممـا توافقني . ذلـك ان كل النعوت التي تلصق بي تغيظني . فبعضها متملق ، وبعضهـــا الاخر زائف . انـالست من البساطة بحيث ينطبق عليّ نعت .والحقيقة انها ليست الى عودتي بمثل ما تصفه لي من شوق . ولكنها ، تملنـي كثيرا في اوقات اخرى . اني رفيق حقيقي لها . وهي تحبني كثيرا . وسرعان ما تؤنب نفسها : اني احبه كثيرا .

وقلت لها يومئذ من غرفة الفندق حيث كنت احلم بكل ذلك :

ـ ... ولم تؤنبين نفسك ، وكيف أتأكد مما بحتنيه ؟

وللتو ، كنت قربها وكنا نبكي كلانا مصيري .

ـ ماذا تنتظرين ! لا تنقصني الشجاعة . اعترفي بأن قلبكلايتصور قدرته على حبي من جديد .

ـ وأجابت صادقة :

ـ هذا صحيح . ولكني اعتقدت طويلا بعجزي عن حبك . او لم اتعلق بك بكل كياني ؟

كانت تتكلم لغتي المنمقة . كانت تميـل الى بلاغتي . وكـانـت تغمرني كليا بالالم الذي كنت أنتظره منها :

ـ ذهني أيقظته أنت وحدك ...

كانت مجاملاتها تملأ أعماق قلبي مرارة .

ـ كنت ...

ذلك اننا نتحدث بصيغة الماضي الناقص عمن صاروا غرباء عنا.

وقلت لهـــا :

ـ أحببتني مرغمة . والان تستعيدين وعيك . ولهذا أرعبك.

كنت أتسلى بحركتها الخفيفة الى الوراء فيما كنت اقبلهـا قبلة الوداع ، هذه الحركة التي صححت على الفور . وها هي الوجنـة الاخوية توهب فتلتصق بشفتي ، فامعن في لثمها حتى تفنج ، فاتمنى لو تتهالك ببسمة محرقة ورعشة جسد صارخ . ولكـن عبثـا . حبذا لو يكبو وجداني فاضاجعها ذات ليلة !

يا لسعادة الحب الطفولي المنقطع بروعة ! يا لسعادة الحب الحالم والموت يكلله بينما حبنا البائس قضي عليه أن يتابع طريقه منـــذ تلاقينا حتى لا مبالاتها ، حتى شفقتها .

في هذا الجو من الشعور بالعذاب ، امضيت أيام سفري .كتبت لي : « أحبك . ليتك تعلم كم أحبك . بودي ان تكون قربيا مجنوني الكبير » . انـي اكرر : كانت تحلـم دائمـا بان تحب حبا هـذا دابه . فهي لا تشك . أن تستغرب .ولن تجرح ان هي علمت انني بين رسالة مرهقة لغتني غما وأخرى مثلها ، ابقى حتى الصباح أتناقش وزميـل لي في مسائل اقتصادية وتقنية يمنعني حضورها من التطرق اليها .هنا،

لا اتذكر حبي الا من بعيد لبعيد . بل لا اتذكره ، بملء ارادتي ، خشية أن يكون حبي ناقصا أو هكذا احسب . انها جذلي ...

هائم : كان عليّ ان أعود من السفر في الغد . ولكن شقاء شديدا كان ينهشني . ركبت سيارة ووصلت الساعة الرابعة . كنت مصمما على عذر لما يقر قراري عليه . لم يرني احد أدخل . اختبأت تحت سريرها ، وانتظرت . لماذا لارى ان هي تحبني .

جاءت في السابعة كغيرها من الموظفات . كان يبدو عليها التصميم الشديد والحزم الشديد . رمت معطفها الفرو فوقي.والتقت بنفسها في المرآة بلا مبالاة تدهش . ومدت يدها الى شيء لم اره ، ثم غيرت رأيها فهوت يدها . بفعل هذه البادرة غير المألوفه ، خلت هنيهة اني لا اعرفها . وتودج انفها على غلو . واكتشفت غيد عنقها : امراه جديده لا احبها ، بمثل هول ذلك المجهول الذي اطل عليّ مرة من مرآة لها ثلاثة وجوه عند خياطي ، المجهول المشلف الرقبةوالمحدودب الظهر الذي كان انا بالنسبة الى الاخرين . هي أيضا كانت تعيشفي غربة .

واتجهت الى الردهة . ودندنت لحنا كانت تغنيه من قبل. والاسوأ : انها كانت تغني قبل أن تعرفني . وقرع الباب فاذا بها تعود وشقيقتها . وطفقتا تتحاوران في المرآة . وسألتها شقيقتها، وهي تتبرج ، عني ، فردت عليها بنعومة :

ـ « بخير . سيعود غدا . »

ـ لا بد أن يبدو لك الوقت طويلا !

وتبادلتا الضحك ، فاتشح وجهي بالاحمرار .

وتحدثتا ايضا عن الفساتين ، وعن حفلة . وما كانتا قالتا شيئا امامي عن هذه الامور التي تعهدانها . وفي الواقع ، فهي لا تهمني.

وما ان غادرتا الغرفة حتى خرجت من مخبئي وقعدت على السرير. ورحت أمسد معطفها ، معطفها المخملي الجحود الصغير . لو اظهر في غرفة الطعام ... كم يكون وقع المفاجأة ! اشبه بظهور ميت ! كنت في غرفة ارملتي . اشعلت سيكارة مقتما . وفتحت حقيبتها ،فوجدت رسالتي الاخيرة واصبع حمرة ودريهمات . ولاول مرة ، لاحظت على الطاولة صورة قديمة لم أعد اشبهها . هوذا من تحب : شبح يفتكر تماما بكل ما تقوله رسائلي ، ويشبه هذه الصورة . أما أنا ، انا الذي كنت أدخن ، انا الذي كنت افتح حقيبتها واغلقها ، فلا تحبني .

ـ رافقتك السلامة .

كنت مختبئا وراء ستول النافذة .

تجذبت متململة . ووضعت حليها في علبة . ولحليها منزلة عندها .

لا مشاحة بان حركاتها في ايام المدرسة كانت ابطأ منها اليوم .لشد ما كنت اشغل بالها ! وفيما هي تخلع رداءها ، اذا ببكلة تعلق ،فتأففت. ولم تعجبها نبرة صوتها . وتلفتت عدة مرات حذرة .

كانت عارية . الا انها نشرت من مطوى قميص نومها بهدوء.وفكرت بسخط بهذا العناق الرقيق وهو لعمري امتياز مستحب .

وغابت بقسوة في جلباب العتمة . وظللت منتظرا . وكنت أردد في نفسي ينبغي الاقتناع بقلب أمثالك . ومرت في خاطري الملائكة والجنة الضائعة . كنت بين الستار والنافذة ، بل في الشارع اكثر مني في الغرفة . وكنت أسمع نداءات مبرحة : زمور سيارة ، وصوت راديو . وكان لهب الغاز لا ينفك يتلوه .

لم يعد بمقدورها أن تصد التيار ، ولا أن تفكر بهذا الحبيب البعيد عن كلينا . كانت صور مشوشة تنتظرها في المنام . اشعلت ضوءا عليلا . واقتربت على رؤوس اصابعي . كانت نائمة ، ممتدة ، مستكينة ، يداها تحت رقبتها ، وجسدها على طوله يلفه اللحاف بعناية فائقة . لكم كانت مرتاحة مني ومستغنية عني !

وتمتمت : « احبك » . الكلمات كلها عاجزة عن تأدية القصد .

علينا ان نتحمل ، أن نعيش ، ونكذب ، ونسهر ، نسهر دائما ، ونتألم دائما . اني أكتب ، وأكتب . على الاقل ، سنكون مفاجأتها في الصباح طريفة .

يدي ترتجف . ولا أجسر أن ارفع عيني الى من في المرآة . اذا ذهبت اليه ، قدم من أقصاها ، ولكنني لن أستطيع ان اقبله الا في فمه . فخذه محظور عليّ . وماذا يفعل ؟ يكتب هو ايضا ، او ينظر اليّ اكتب وقد انهى اقصوصتنا قبلي .كان يتفكر بي بينما كنت اواصل الكتابة ، ولعله آذ بدأت أتفكر به اخذ ينظر الى جفني مجهولةمغمضين باصرار ويبكي ثم يبكي ...

اواه ! متى نتحاب ! متى نكون لوحدنا !

بيروت

ميشال خليل هليّل

صدر حديثا

قراءة ثامنة

للشاعر

حميد سعيد

منشورات دار الآداب

الثمن ليرتان لبنانيتان